قناع أميرة ثاج من الذهب الأثري الخالص
عُثِر عليه في المنطقة الشرقية بالسعودية



قناع جنائزي مصدره ثاج، القرن الأول للميلاد، متحف الرياض الوطني

محمود الزيباوي

آخر تحديث: 20:46-21 مارس 2023 م . 29 شَعبان 1444 هـ
نُشر: 20:43-21 مارس 2023 م . 29 شَعبان 1444 هـ

أشهر القطع الذهبية الأثرية التي خرجت من المواقع الأثرية السعودية هي تلك التي عُثِر عليها في موقع عين جاوان وموقع ثاج في المنطقة الشرقية من المملكة، وأكثر هذه القطع إثارة قناع جنائزي من الذهب الخالص، يُعرف إعلامياً باسم «قناع أميرة ثاج».

تقع ثاج في شمال شرقي المملكة، على بعد نحو 95 كلم من مدينة الجبيل غرباً، وعلى بعد نحو 150 كلم من مدينة الظهران شمالاً، وسط وادٍ ضحل يمتدّ على الطريق التي كانت تسلكها قديماً القوافل التجارية المتجهة جنوباً إلى اليمامة والأفلاج ومنها إلى وادي الدواسر، ثم إلى نجران، بين جنوب الجزيرة العربية، وجنوب الدولة البابلية.

في مطلع القرن الماضي، قصد النقيب المستكشف وليم هنري شكسبير هذا الموقع يوم كان يعمل على رسم خرائط للمناطق الشمالية من الجزيرة العربية، وزاره من بعده عدد من الباحثين، أشهرهم الكولونيل والمؤرخ هارولد دكسون وزوجته فيوليت في مطلع الأربعينات، وعالم الآثار الأميركي بول لاب في مطلع الستينات. في 1968، أجرت بعثة دانماركية أول الأعمال الميدانية والحفريات الاختبارية في هذا الموقع. وبعد 10 سنين، شرع فريق من هيئة الآثار والمتاحف السعودية في دراسته خلال تنفيذه المرحلة الثانية لمسح المنطقة الشرقية، ثم أجرى فيه حملة تنقيب في 1983، تبعتها حملة أخرى في العام التالي.

خرجت مستوطنة ثاج من الظلمة إلى النور، وتوالت الاكتشافات الأثرية فيها، وتبيّن أنها كانت من أهم المدن البرية في هذه المنطقة، وقيل إنها الجرهاء، تلك المدينة التي ذكرها الجغرافيون القدماء، وغالوا في الحديث عن ثرواتها، غير أنها اندثرت، وأضحت لغزاً بعدما عجز البحّاثة عن التعرّف إلى موقعها. عمرت ثاج وازدهرت على مدى ستة قرون من الزمن، كما تشهد أطلالها وما خرج منها من آثار، لكن بريقها خبا في القرن الرابع للميلاد، حين فقدت الطرق التجارية في الخليج العربي دورها، إثر صعود الفرس، وسيطرتهم على وادي الرافدين.
تواصلت أعمال التنقيب في هذه المستوطنة المهجورة، وفي نهاية القرن العشرين، استكشف فريق من الإدارة العامة للآثار التلال التي تقع في شرق الموقع، وقادهم هذا الاستكشاف إلى مدفن بُنيت جدرانه من الحجر الجيري المقطوع يضمّ كنزاً أُطلِق عليه لاحقاً اسم «كنز ثاج»، وأُطلِق على صاحبته اسم «أميرة ثاج».
بدأ هذا الاكتشاف مع ظهور قطع صغيرة من الذهب، تبعه ظهور قطع دائرية معدنية، اتضح أنها تمثّل أركان سرير جنائزي شكّل تابوتاً لصبية مجهولة الاسم. هكذا، ظهرت تباعاً الحلل الخاصة بهذا التابوت، تمثّلت في قناع وكفّ وشرائط ورقائق من الذهب، إضافة إلى مجموعة من العقود والأقراط والأساور والخواتم. رُفع السرير بقوائمه المتمثلة في أربعة تماثيل أنثوية من الرصاص تتبع الطراز الإغريقي، وعُثر تحت بقايا الجثمان على ثلاث أوان معدنية متآكلة. حوى هذا الكنز ثلاثة عقود ثمينة، يحمل واحد منها في وسطه فصّاً من الياقوت نُقش عليه وجه امرأة صيغ بأسلوب واقعي رفيع. كذلك، حوى هذا الكنز ثلاث أساور ذهبية كانت تحيط بساعد الصبية الأيسر، وخاتمين ذهبيين كانا يزيّنان أصابع يدها اليسرى. يحمل الخاتم الأول فصّاً نُقشت عليه صورة تمثل أرتميس، ربّة الصيد والبتولية والخصوبة في الميثولوجيا اليونانية. ويحمل الثاني فصّاً نُقشت عليه صورة تمثّل وجهاً جانبياً لرجل يصعب تحديد هويّته.

حضر جثمان «أميرة ثاج» على هذا السرير مع مجموعة كبيرة من الرقائق الذهبية، أكبرها القناع الذي يبلغ طوله 17 سنتيمتراً، والكف التي يبلغ طولها 15 سنتيمتراً. استقرّت ثلاث من هذه الرقائق على جمجمة صاحبة القبر، واستقرت قطعة رابعة على الحوض. كذلك، أحيط الجثمان بأكثر من ثمانين قطعة. زُيّنت معظم هذه الرقائق بزخارف نباتية، وزُيّنت ثلاث منها بصورة تمثّل سيد أرباب

الأكروبوليس، زيوس، منتصباً وممسكاً صولجانه بيده اليسرى، ونسره بيده اليمنى. كما زُيّنت واحدة منها بصورة نسر.

يحمل هذا القناع الذهبي ملامح وجه نُقشت بشكل ناتئ، وفقاً لأسلوب غلبت عليه المعالجة الهندسية المختزلة. يبدو هذا الأثر فريداً من نوعه في ميراث الجزيرة العربية المتعدّد الأشكال والأنواع، غير أنه ينتمي في الواقع إلى تقليد راسخ ظهر أوّلاً في العالم اليوناني القديم. تعود أقدم نماذج هذا التقليد إلى مدينة موكناي الأثرية، في إقليم بيلوبونيز، وتتمثّل في خمسة أقنعة جنائزية تعود إلى القرن السادس عشر قبل الميلاد، تمثّل مجموعة فريدة مستقلّة لا نجد ما يماثلها في زمنها.

بعد أكثر من ألف عام، بعيداً من موكناي، ظهرت هذه الوجوه من جديد في مقدونيا القديمة، حيث شكّلت تقليداً محلّياً راسخاً تمثّل في مجموعة من أربعة وعشرين قناعاً، خرجت من ست عشرة مقبرة توزعت على الجزء الشمالي الشرقي من جمهورية اليونان وما بات يُعرف اليوم بجمهورية مقدونيا الشمالية، إضافة إلى مناطق حدودية من بلغاريا. تعود هذه الأقنعة إلى عهد الأسرة الأرجيدية التي بدأت مع مؤسّسها بيرديكاس الأول في القرن السابع قبل الميلاد، وانتهت بموت الإسكندر الرابع في 310 قبل المسيح. لا تنفصل هذه الأقنعة عن الحلل الذهبية التي ترافقها، وهي حلل عديدة، أبرز عناصرها أكفّ ذهبية، ورقائق من الذهب تستقر على أعضاء معيّنة من الجثامين، وعلى مواقع محدّدة من الأكفان.

إضافة إلى الأقنعة الأربعة والعشرين التي قام البحاثة بدراستها وتوثيقها، تحضر مجموعة أخرى مشتّتة تعود كما يبدو إلى العالم المقدوني القديم. يمتدّ هذا التقليد إلى خارج العالم المقدوني، ويجد صداه في مجموعة أخرى مشتّتة، تتبع الطقس نفسه. تعود هذه المجموعة إلى الشرق الأدنى، وإلى الساحل الفينيقي تحديداً، ومصدرها صيدا وجبيل، ومدن أخرى مجاورة، مثل بعلبك وحمص. ويبدو أن هذا التقليد بلغ نواحي أخرى من الشرق الأوسط، كما يشهد قناعان من نينوى في شمال العراق، دخلا المتحف البريطاني.

في الخلاصة، يشكّل كنز أميرة ثاج امتداداً آخر لهذا التقليد وصل إلى الجزيرة العربية، مع العلم بأنّ هذا الكنز يُنسب إلى القرن الميلادي الأول، أي إلى مرحلة دخل فيها هذا التقليد مرحلة الاندثار في الأراضي التي شهدت انبعاثه وازدهاره من قبل.

مواضيع ART
